أبو العتـــاهية

تأليف الأستاذ محمد أحمد برانق

للأستاذ كامل محمود حبيب

المدرس رجل نال حظاً كبيراً من الأدب والعلم ، وأصاب قسطاً وافراً من أصالة الرأى وصفاء الذهن ، وجمع بين الثقافة العالية والتفكير الرصين ؛ فهو أجدر الناس بأن يخوض معمعة النشاط الأدبي والعلمي ، فعنده الاستعداد وبين يديه الأداة . ولكن الإنسان ليعجب أشد العجب أن يرى المدرس أقل الناس إنتاجاً وأبعدهم من معترك التأليف وأنآهم عن مجال البحث . فماذا ، يا ترى ، زهده في هذه اللذة الفكرية وإن فيها لحياة للقلب وشحذاً للذهن وصقلاً للعقل ؟ أما أنا فلا أرى ما يدفعه عن ميدان الفكر إلا ما يعانى من عنت شديد في العمل وما يقاسى من إرهاق عنيف في المدرسة ، فهو لا يكاد يخلص من الدرس إلا ليندس بين أكوام من الكراسات تستحثه وترهقه وتشغل باله وتقتل وقته . وهكذا يبدد عمره في إعداد الدرس ويفنى عقله في تصحيح الكراسات ، ثم لا يفلت من هذا كله إلا ليلقى بنفسه في خضم الدروس الخاصة وما به لهفة إليها ، أو إلى مضطرب التأليف المدرسي وما به رغبة إلية . ولكنها حاجات العيش ودوافع الحياة وطلبات الدار والولد تقذف به في غير هوادة ولا لين إلى إلى هذا السبيل علّه يجد القوت الكريم واللباس الشريف والمسكن اللائق . ولشد ما يدهش المرء حين يرى جيشاً لجباً من المدرسين المثقفين — يربو على سبعة آلاف — فلا يرى فيهم من يحن إلى البحث العلمي أو من يصبو إلى التأليف الأدبي ، اللهم إلا فئة قليلة لا تتجاوز العشرة ! فالمدرس — إذن — رجل يموج بين الإرهاق والإملاق ، فإن عكف على الحياة العقلية أو حمل نفسه على الناحية الأدبية أخرج للناس شيئاً فيه روح نفسه المضطربة وفيه سمات حياته الزعزعة .

وأشهد أن صاحب كتاب « أبو العتاهية » رجل من الفئة القليلة ، صبر على الجهد ورضى بالمشقة ليخرج بحثاً أدبياً فيه الاستقصاء والجهد والاستنتاج .

لم يكن أبو العتاهية شاعراً يتحدث عن خلجات قلبه ولا مفكراً ينطق بعقله ، وأنى له أن يفعل وهو « رجل فقير نشأ في بيت متواضع يصنع الجرار مع أبيه ، فإذا نضجت الجرار حملها أبو العتاهية ، أو حمل أكثرها معه على ظهره ، وسار بين الحوارى والأزقة في مدينة الكوفة يبيع جراره ويساوم في ثمنها ، فإذا ألهبت الشمس قفاه ومس حر التراب أخمص قدميه وبلغ منه التعب مبلغه — ألجأه ما به إلى ظل حائط ، فيحط حمله ، ويجلس مستنداً إلى الحائط ظهره ، برماً بالدنيا متسخطاً عليها فيلتف حوله الصبيان يعبثون به ويعبث بهم وينبسط معهم في الحديث ... »

فهو لم يكن ذا علم وثقافة ، ولم يكن ذا عقل وحصافة ، فعاش حتى آخر أيامه فجاً لم تستكمل أداته ولا بلغ ذروة الشعر ولا جارى شعراء عصره — عصر الإبداع والازدهار — فتخلف عن الركب وانبهرت أنفاسه ولكنه اتخذ إلى الشهرة سبيلاً هيناً سهلاً ، فاعتمد على كبير من بنى معن يقذع له في القول ويفحش في الهجاء ، في غير ذنب ولا جريرة ولكن الشاعر — في رأيي — كان يحس في قرارة نفسه ضعة الشأن وحقارة المنبت وصعوبة المرتقى فثارت نفسه غيظاً وحقداً ، فوجد في الهجاء متنفساً يطفئ شرة غيظه ، ووجد في هجاء عبد الله بن معن — وهو رجل عظيم من بيت كبير — طريقاً يعلو به إلى سماء الشهرة في سهولة ويسر . والهجاء فن من الشعر لا يحتاج إلى كياسة ولا يتطلب لباقة . وهكذا طار صيت الشاعر في الكوفة — أول الأمر — وامتد أفقه حين ضربه عبد الله بن معن مائة سوط جزاء ما أفحش في القول .

وفي رأي العقل أن شاعرنا كان يتصنع في كل شيء : في الهجاء وفي الغزل وفي التصوف جميعاً . يتصنع الهجاء وما به مقت ويتصنع الغزل وما به هوى ويتصنع التصوف وما به زهد .

فهو حين شبب بجارية المهدى (عتبة) كان — في رأيي — لا يبتغى من ورائها إلا أن تكون وسيلة إلى بيت الخلافة ، يرتفع بها شأنه ويزكو مكانه ، على حين لم تكن به لوعة ولا كان به شوق . وإن القارئ ليعجب حين يعجزه أن يجد في نسيبه بيتاً واحداً

يتبض بعاطفة جياشة أو سطراً يخفق بحب عميق . وليس أدل على ما أزعم من قوله فى عتبة وهى من أحب وتدله فى حبها واصطفاها بشعره وخصها — وحدها — بقلبه .

وقد أتعب الله نفسى بهـا وأتعب باللوم عـذالها

فتعبير الشاعر عن نوازع قلبه بكلمة (أتعب) تعبير تافه لا ينطوى على شاعرية ولا سمو . فالكلمة مضطربة قلقة ، ثقيلة النطق وضيعة المعنى لا تتحدث عن صبابة وهوى ولا تكشف عن لوعة الحنين ولا تهتز بلذعة الشوق . وفيها — فوق ذلك — معانى الضيق والملل .

ومما يدل على أنه كان فى غزله عابثاً لا يحبا عن أحب ما جاء فى ص ٩٣ من الكتاب حين أنساه كلبه للمال ذكر عتبة فتقول « لو كان عاشقاً — كما يزعم — لم يكن يختلف منذ حول فى التمييز بين الدراهم والدنانير وقد عرض عن ذكرى صفحا » .

لقد اشتهر أبو العتاهية بين العامة بالزهد والتقشف ، أما أنا فحين أتحدث عن زهده فلا معدى لى عن أن أستنير برأى الحديث الشريف الذى يقول « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى منخرى رجل مسلم أبداً ، ولا يجتمع شح وإيمان فى قلب رجل مسلم أبداً » .

وينقل المؤلف فى ص ٥١ سطر ١٣ خبراً يدل على أن أبا نواس كان يجل أبا العتاهية ويعظمه لزهده وتقشفه ، فلما سأله سائل « لم أجللته هذا الإجلال ؟ » قال « ويحك ! لا تفعل ، فو الله ما رأيته قط إلا توهمت أنه سماوى وأنا أرضى » . وهـذا كلام عجيب إخاله لا يصدر عن شاعر عبقرى فذ مثل أبى نواس تتألق روحه بومضات سماوية تزرى بكل ما نظم أبو العتاهية فى الزهد . ثم يحس المؤلف كذب الحديث فيقول فى ص ٥٢ سطر ٤ « وأنا من الذين يرجحون أن زهـد أبى العتاهية زهد مفتعل لا يعبر عما فى نفسه ولا يصور دخيلتها ولم يطرق فيه إلا المعانى العامة التى يتحدث الناس بهـا ، وإلا فما بال رجل هذا شعره يحرص على المال كل الحرص ويسلك مختلف المسالك لجمعه . »

هـذا ولقد رأيت فى الكتاب أثر الجهد والصبر وطول البحث والاستقراء مما يدفعنى إلى أن أقدر مجهود الأستاذ المؤلف حق قدره وأشكره على أن أخرج لنا صورة حية ناطقة من شاعر لا يعرف أكثر الناس عنه إلا شذرات لا تغنى ولا تسمن .

كامل محمود حبيب

أعلام من الشرق والغرب

تأليف الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

بقلم الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

من واجب كل أمة تريد أن تستكمل نهضتها ، وترفع من شأنها ، أن تعرف ماضيها حق المعرفة . فليست القومية الوطنية إلا التاريخ المتجدد مع الزمان . ولست أدرى كيف نريد أن نعتز بمصريتنا دون أن نعرف دقائق تاريخنا . وقد شاءت إرادة المستعمر أن يسدل بيننا وبين تاريخنا ستاراً كثيفاً من النسيان يحجبنا عنه حتى لا نتعلق بأذيال الوطنية ولا نطالب بالتخلص من نير الاستعمار فلم يكن يسمح بدراسة التاريخ القومى إلا بمقدار . حتى إذا قامت مصر قومتها ظهر كثير من المفكرين والكتاب يحاولون تدوين ذلك التاريخ القومى الذى يصل بيننا وبين ماضينا سواء فى ذلك الماضى البعيد أو القريب . وأرخ لهذا الماضى القريب الرافعى فى الحركة القومية ولكنه عنى قبل كل شىء بالجانب السياسى ولو أنه لم يغفل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأدبية حتى لقد أفرد فى كتابه فصولاً قصاراً ترجم فيها لبعض أعلام مصر الحديثة مثل رفاعة رافع الطهطاوى من البارزين فى سماء النهضة المصرية .

ويحتاج التحقيق التام للحركة الأدبية فى القرن التاسع عشر إلى مجهودات كثيرة ينقطع فيهـا الباحثون إلى التأريخ لرجال الفكر والأدب فى القرن الماضى .

وقد دفعت وطنية صديقنا الأستاذ محمد عبد الغنى حسن الشاعر الأديب إلى رسم صور عققة عن بعض أعلامنا يجد الباحث عنهم العناء الشديد فى التعرف إليهم . فنفض عنهم غبار النسيان وجلا للقراء صفحة مطوية من تاريخ مصر الحديث .

فهو يحدثنا عن مصطفى مختار بك أول وزير للمعارف المصرية الذى أرسله محمد على باشا مع البعثة المصرية إلى فرنسا ، وهى تلك البعثة التى كان رفاعة الطهطاوى إماماً لها .

ويحدثنا بعد ذلك عن شاعر الخديو الأول الشيخ محمد

شهاب الدين وهو كما حدثنا صاحب هذا الكتاب « الشاعر الرسمي لمصر الحديثة . ولم يكن هذا الشيخ ربيب الأزهر وإنما كان وزاناً صغيراً في أسواق البيع والشراء . وكأن الوزن النادي في الأسواق النافقة والكاسدة كان تمهيداً للوزن المتوى في سوق القريض والقصيد فقد أصبح هذا الوزان شاعراً رسمياً للخديوي يزن القصيد ويتغنى الناس بشعره .

على أن شعر الشيخ لم يكن جيداً وقد قدم الكاتب نموذجاً لشعره وحلله إلى أن انتهى بهذا الحكم الصادق وهو « أننا نكلف رجال ذلك العصر شططا إذا طلبنا منهم أن يكونوا أجود مما وصلوا إلينا فقد كونتهم بيئتهم ثم مهدوا السبيل بعد ذلك للبارودي الذي اجتمعت له ولعصره أسباب الأحياء في الشعر العربي » .

ويحدثنا بعد ذلك عن عالم طريف مغمور هو الشيخ محمد عياد الطنطاوي الذي سافر من مصر إلى بتروجراد عاصمة روسيا يعلم اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية فكان له أثر كبير في المستشرقين من الروس . ولقد لقي الكاتب عناء شديداً في الترجمة لهذا الشيخ فأخذ يجمع سطراً من هنا وإشارة من هناك ويتصل اتصالاً شخصياً بمن يظن فيه شبهة معرفة بتاريخ ذلك الرجل حتى أخبره البروفسور ولوتسكي بالجامعة العبرية أن للشيخ مؤلفاً بعنوان تحفة الأذكيا بأخبار بلاد روسيا ، وأن الكتاب مخطوط يوجد منه نسخة في اسطنبول . ولا ريب في أن مثل هذا الكتاب طريف فريد في بابه فضلا عن قيمته التاريخية الكبيرة ، فهو يصور الحياة في روسيا في منتصف القرن التاسع عشر بقلم مصري أزهري . فهل نطمع في قيام أحد علمائنا باجتلاب هذا المخطوط وطبعه ؟

وينتقل بنا الأستاذ عبد الغني بعد ذلك إلى الحديث عن شاعر مصري ، وقف شعره على أشراف الحجاز يسمى محمود صفوت الساعاتي ، سافر للحج فاتصل بالشريف محمد بن عون أمير مكة فقربه إليه وصحبه في حروبه مع أمراء نجد ، فصور الساعاتي هذه الحروب شعراً يذكرنا كما يقول عبد الغني بشعر المعارك عند المتنبي في القديم وعند البارودي في الحديث . وذلك مثل قوله في مدح الشريف ابن عون :

إذا تألق برق السيف في يده
أبصرت غيث دم الأبطال منسفحا

مقوم كل معوج بصارمه
فكل خصم لهذا صار منطرحا

وقد طاف الساعاتي بكثير من أغراض الشعر فمدح وطلب وعتب ورثى ، فلم يخرج في ذلك عن مألوف القدماء .

وكنا نود أن يحدثنا الأستاذ عبد الغني عن الشاعر السيد علي الدرويش بعد أن حدثنا عن شهاب الدين مباشرة لأنهما من الذين اختصهما عباس الأول بمجلسه حتى كان كل منهما يلقب بشاعر عباس الأول . وقد ترجم له ترجمة جيدة درس فيها شعره عللا أغراضه وبين الخصومة التي كان لابد أن تقع بينه وبين شهاب الدين حتى بلغ من هجاء الدرويش لخصمه أن يقول له في قصيدة يهجوه فيها :

عاش دهراً وجهله في ازدياد
ليته بعد لم يكن ليعيشا .

وينقلنا المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عن علم من أعلام الأدب في مصر الحديثة كان له أثر عظيم وفضل كبير على نهضة الأدب في مصر هو الشيخ حسين المرصفي الذي ظل يدرس في الأزهر إلى أن كانت نظارة علي مبارك فعهد إليه بالتدريس في دار العلوم وكان يحضر عليه كثير من أعلام العصر منهم علي مبارك نفسه . وقد اختط في تدريس الأدب العربي والبلاغة منهجاً جديداً ظهر في كتابه المسمى بالوسيلة الأدبية قد وصفه علي مبارك برقة المزاج وحدة الذهن وشدة الحذق .

ونجد علماً آخر مجهولاً ولكنه أثر في الحياة الأدبية عن طريق الصحافة هو حسن حسني الطويراني باشا والذي دعا المؤلف أن يترجم له هو سؤال سائل في مجلة الرسالة أن يتفضل أحد الأدباء برواية قصة الشاعر المغمور . فافتتح الأستاذ عبد الغني ترجمته بعجبه أن ينسى أديب عربي مشهور وصحافي ذائع الصيت ، وشاعر قوي العبارة ، ولما يمض على وفاته نصف قرن كامل ؛ فكيف إذا خب الطلى به عشرات القرون ؟

ولد الطويراني في مصر ولكنه تركي تنقل من بلد إلى بلد حتى قال عن نفسه :

شرق للنسر وغرب
وتترك وتعرب

ولئن أطري وأطرب
فهو نصاح مجرب

وهو إن أعرب أغرب
وهو إن أعجم أعرب

وحرر في صحف تركية وأخرى عربية كانت تصدر بالقسطنطينية وكانت تغلب عليه الروح الإسلامية ونزعة الإصلاح وله ديوان شعر ولكنه غير جيد . وقد درسه المؤلف دراسة مستفيضة فحكم

عن أغراضه وعن أسلوبه وعن مآخذ عليها في شعره .

ثم نجد فصلاً طريفاً يحدثنا فيه عبد الغني عن شوقي وحافظ بين الكتب وهو فصل طريف لأننا على وثوق معرفتنا بشوقي وقراءتنا لديوانه وتمثيلياته وقصصه نجهل عنه بعض تآليفه مما أخرجه في صدر شبابه ؛ فأسدل عليه ستار النسيان فقد كتب شوقي رواية ظهرت في ١٨٩٧ تسمى عذراء الهند ترجع حوادثها إلى زمن رمسيس الثاني وهي أول محاولة لشوقي في معالجة الفن الروائي ولكنها لم تنجح . وظهرت له بعد عامين رواية نشرتها مجلة الموسوعات تسمى لادياس قصد منها شوقي أن يصور حالة مصر بعد عهد ابسماتيك الثاني ، وقد كتبها نثراً ولكنه نثر مطبوع بطابع العصر يمتاز بتكلف السجع وفيها يقول : « وكانت لادياس فتنة الناس ، بالبدر الطالع في الغصن المياس ... » وقد تحرر شوقي من السجع بعد ذلك كما نرى في رواية أميرة الأندلس .

ولشوقي رواية ثالثة هي ورقة الآس .

ولا أحب أن أمضي في هذا التلخيص إلى نهاية الكتاب خشية الإطالة ، فنحن نجد بعد ذلك ترجمة دقيقة للشيخ محمد شاكر الذي كان وكيلاً للأزهر في مطلع القرن العشرين وهو والد صديقنا الشيخ أحمد شاكر الذي ينشر الآن مسند الإمام أحمد بن حنبل .

ويحدثنا عن أدباء عرفناهم واتصلنا بهم مثل اسماعيل أدهم وزكي أبو السعود ، وإسعاف النشاشيبي ، وأنطون الجميل .

فأنت ترى أن الكتاب قد جمع أعلاماً مختلفين اختلافاً شديداً ولكن تربطهم رابطة قوية هي رابطة الأدب في مصر الحديثة .

ويبدو أن نصيب الشعراء أوفر ولا غرو فصاحب الكتاب شاعر تستجيب نفسه إلى الشعراء فتجمعه وإياهم صلة الصناعة ، ولذلك كانت دراسته لهؤلاء الشعراء دراسة الحاذق البصير والناقد القدير .

وقد انتقى ما ذكره عن شوقي من أن نثره يكاد يكون شعراً فقيها هذه الموسيقى التي تطرب لها الآذان ولذلك حاول أن يرد بعض نثره إلى الأوزان الشعرية مثل قوله في الوطن .

ومراد الرزق ومطلبه وطريق المجد ومركبه

فهو بيت من بحر المتدارك فقلت في بالي : وأنا أقرأ أسلوب عبد الغني وأحس فيه بهذه الموسيقى التي ترتاح إليها النفس أن ذلك أثر من آثار صناعة الشعر وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده .

أحمد فؤاد الأهواني

ثـــلاثة كتب

جديرة بأن تزدان بها مكتبتك

تأليف

محمود تيمور بك

– ١ –

إحســـان لله

أحدث مجموعة قصصية للمؤلف

– ٢ –

المخبـــأ رقم ١٣

كتاب يحوي نسختين من هذه القصة الطريفة

الأولى بالفصحى والثانية بالعامية

– ٣ –

اليـــوم خمر .. !

قصة النفس الإنسانية الحائرة

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بشارع الفجالة بالقاهرة